القوة الناعمة: وسيلة النجاح فى السياسة الدولية*

عرض كتاب

سالى محمود **

تعريف الكاتب

جوزيف س. ناى هو مفكرٍ ومحلل سياسى، وعميد كلية كينيدى للدراسات الحكومية في جامعة هارفارد، وكان رئيس مجلس المخابرات الوطنى ومساعد وزير الدفاع فى الولايات المتحدة الأمريكية فى حكومة الرئيس بيل كلينتون .

المقدمة

قدم (جوزيف س. ناى) مصطلح "القوة الناعمة" عام ١٩٩٠، ويستعرض الكتاب مفهوم "القوة الناعمة" ويطوّره ويوضّحه بالأمثلة ويرى الكاتب أن المصطلح قد أسئ فهمه واستخدامه، وتم حصره فى نظرة سطحية لا تتجاوز تأثير الماكدونالدز وهوليود (الأفلام) والـــچينز الأزرق وما إلى ذلك.

ويعرف الكتاب القوة الناعمة بأنها "القدرة على الحصول على ما تريد عن طريق الجاذبية بدلا من الإرغام أو دفع الأموال"، وهكذا فإن القــوة الناعمة تختلف

* Joseph S. NYE, Soft Power: The Means to Success in World Politics, Public Affairs, Perseus Books Group,USA, 2004.

** مدرس مساعد، المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية.

عن القوة الصلبة المكونة من العتاد العسكرى والثراء الاقتصادى واستخدامهما للتهديد بالعقوبات أو الاستمالة بالمساعدات. إذاً فامتلاك قوة ناعمة يعنى أن تجعل الآخرين يعجبون بك ويتطلعون إلى ما تقوم به فيتخذون موقفًا إيجابيًا من قِيَمك وأفكارك وبالتالى تتفق رغبتهم مع رغبتك.

قسم المؤلف كتابه إلى خمسة فصول حاول خلالها تفصيل مفهوم القوة الناعمة التى تعمل جنبا إلى جنب مع القوة الصلبة "العسكرية" لتقوية مصالح أمريكا فى كافة أرجاء العالم. والفصول الخمسة هى: الطبيعة المتغيرة للقوة، مصادر القوة الناعمة الأمريكية، قوة الآخرين الناعمة، البراعة فى استخدام القوة الناعمة، والقوة الناعمة والسياسة الخارجية الأمريكية.

يقدم الفصل الأول تأصيل لمفهوم القوة بصفة عامة ويقدم أمثلة لأنواع القوة، ثم تعريفاً للقوة الناعمة وتأثيراتها وحدودها وكذلك تحليلاً للتغير فى محتوى القوة فى السياسية الدولية، وأسباب تزايد أهمية القوة الناعمة فى الحاضر. ويعرض الفصل الثانى لمصادر القوة الناعمة للولايات المتحدة الأمريكية من خلال ثقافتها، وقيمها المحلية وسياستها وجوهر وأسلوب سياستها الخارجية، بينما يستعرض الفصل الثالث القوة الناعمة لدى الدول الأخرى، ويختبر الفصل الرابع المشاكل العملية والواقعية التى تقف حائلاً دون استخدام القوة الناعمة ببراعة فى الدبلوماسية العامة، بينما يلخص الفصل الخامس والأخير كل الوسائل الممكنة والمتاحة للسياسة الخارجية الأمريكية فى أعقاب الحرب الأمريكية على العراق.

الفصل الأول

يبدأ الفصل الأول بعرض مفهوم القوة ويعرفها كالتالى "القدرة على التأثير فى سلوك الآخرين للقيام بعملٍ ما يتفق مع ما نريده" ويرى الكتاب أن هناك العديد من وسائل التأثير المختلفة مثل الإكراه عن طريق التهديد، الاستمالة من خلال المكافآت ودفع الأموال، بالإضافة إلى جذب الآخرين إلى ما تريده. ثم يستعرض بعد ذلك

بعض مفاهيم القوة لدى الآخرين فهناك من ينظر إلى القوة نظرة ضيقة وهي"الأوامر والإكراه"، وآخرون يعرفون القوة بأنها "امتلاك دولة ما للقدرات والموارد التى تمكنها من التأثير على المخرجات"، ويرى الكاتب أن كلا المفهومين يغفلان العديد من العوامل التى تتأثر بها القوة الحقيقية للدولة، كما يرى أن هناك بعض الدول التى لا تتمتع بما سبق ذكره فى التعريفين السابقين ولكن فى نفس الوقت تمتلك قوة للتأثير أكثر من الدول ذات الموارد والقدرات.

ثم يتم الانتقال للحديث عن القوة الناعمة للدول، وهى "القدرة على ممارسة النفوذ عبر أدوات غير مادية مثل الإقناع والجاذبية والتلاعب بجدول أعمال الخيارات السياسية بطريقة تجعل الآخرين يعجزون عن التعبير عن بعض التفضيلات". ويميز "ناى" بين القوة الناعمة وغيرها من أشكال القوة بالتركيز على طريقة ممارسة القوه تجاه الآخرين؛ فالقوة الناعمة هى القدرة على تحقيق الأهداف المطلوبة بالاعتماد على جاذبية الدولة المستمدة من مصادرها: ثقافة، مبادئ، قيم، سياسات، بما ينشئ صورة ذهنية إيجابية عن الدولة المعنية على نحو يخلق تعاطفاً معها ومع سياساتها وأهدافها . ويشير الكاتب إلى أن بلدًا ما قد تكون قوية ذات تأثيرٍ فى السياسة الدولية لأن بلدان أخرى تريد أن تتبعها وذلك إعجابا بمُثُلها، فتحذو حذوها، وتتطلع إلى مستواها من الازدهار والانفتاح.

وهكذا يمكن القول أنّ القوة الناعمة تعتمد على قدرة الدولة على صياغة تفضيلات ورغبات الآخرين بعد أن تكون بمثابة قدوةٍ لهم يتبنون قِيَمها وأسلوب حياتها. ويرى "ناى" أن القوة الناعمة تغنى عن استخدام أسلوب العصا والجزرة، وتتمتع دول كثيرة، لا تمتلك قوة عسكرية أو اقتصادية كبيرة، بقوة ناعمة؛ وذلك بسبب مشاركتها فى قضايا عالمية جاذبة مثل محادثات السلام ومبادرات الحفاظ على البيئة ومكافحة الأمراض والأوبئة. ولكن ذلك لا يعنى بالطبع التقليل من أهمية القوة الصلبة.

ويرى الكاتب أن القوة الناعمة لأى دولة تكمن بالأساس فى ثلاثة مصادر وهى ثقافتها، قيمها السياسية وسياساتها الخارجية.

الفصل الثانى

يستعرض هذا الفصل العوامل التى يمكن أن تكون مصادر ثرية للقوة الناعمة الأمريكية، ويعطى الكتاب بعض الأمثلة مثل احتواء الولايات المتحدة الأمريكية على ٦٢٪ من أهم العلامات التجارية فى العالم، بالإضافة إلى استضافتها ٢٨٪ من جميع الطلاب الدارسين خارج بلادهم. فالولايات المتحدة الأمريكية هى من أكثر الدول نشراً للكتب والمؤلفات الموسيقية وإنتاجاً للبحوث العلمية. وطبقاً لمؤشرات الهجرة، تعتبر من أكثر دول العالم استقطاباً للمهاجرين، وأهم مصدّر للأفلام والبرامج التليفزيونية. ويؤكد الكتاب على أن وجود تلك المصادر الجاذبة لا يعنى بالضرورة إنتاج قوة ناعمة متحققة، لأن القوة الناعمة يجب أن تتناغم مع جاذبية السياسة العامة للبلد، فمثلاً رغم الإعجاب الجماهيرى العالمى بعلوم الولايات المتحدة الأمريكية وتقنياتها وأفلامها وموسيقاها إلا أنها خسرت كثيرًا من جاذبيتها فى حرب ڤيتنام وعند غزو العراق عام ٢٠٠٣.

استعرض هذا الفصل دور الثقافة النخبوية فى إنتاج القوة الناعمة، واستشهد الكتاب بقول كولن باول وزير الخارجية الأمريكى السابق" لا أستطيع أن أفكر فى رصيد لبلدنا أثمن من صداقة قادة عالم المستقبل الذين تلقوا تعليمهم هنا، ذلك أن الطلبة الدوليين يعودون إلى أوطانهم فى العادة بتقدير أكبر للقيم والمؤسسات الأمريكية، وكما هو وارد فى تقرير لمجموعة تعليمية دولية فإن ملايين الناس الذين درسوا فى الولايات المتحدة على مدى سنوات يشكلون خزاناً رائعاً للنوايا الحسنة تجاه بلدنا، وكثير من هؤلاء الطلبة السابقين ينتهى بهم الأمر إلى احتلال مراكز يستطيعون من خلالها التأثير على نتائج السياسة التى هى مهمة للأمريكيين". ويؤكد هذا الفصل على أهمية المبادلات الأكاديمية والعلمية وكيف أن

الكثير من العلماء السوفييت الذين زاروا أمريكا قد تأثروا بالأفكار الأمريكية وأصبحوا لاحقًا ناشطين فى حركات حقوق الإنسان فى الاتحاد السوفييتى.

وأما فيما يتعلق بدور الثقافة الشعبية المتمثلة فى الأفلام والأغانى والرياضة وما إلى ذلك مما يبثّ القيم الأمريكية حتى وإن بدت سطحية مبتذلة، حيث لا يمكن أبدًا التقليل من تأثير هوليوود "فالصور كثيرًا ما تنقل القيم بصورة أقوى مما تفعل الكلمات، وهوليود هى أكبر مروّج ومصدّر للرموز البصرية". ويشير الكتاب إلى أنّ هذه الثقافة الشعبية هى التى تغلبت بقيم الحرية والديمقراطية والليبرالية والشبابية على مدّ الفكر الشيوعى، وهى التى اخترقت جدار برلين بزمن طويل قبل سقوطه. بالإضافة إلى الإشارة إلى أثر تلك الثقافة على الشباب الصينى وقدرتها على إحداث التغيير والانفتاح السياسى.

الفصل الثالث

يرى الكاتب أن هناك العديد من الدول التى تمتعت بقوة ناعمة قادرة على التأثير وأن الولايات المتحدة الأمريكية ليست الدولة الوحيدة الرائدة فى كل نوعٍ من مصادر القوة الناعمة، ويعطى هذا الفصل أمثلة عن دول أخرى مثل الاتحاد السوفييتى الذى كان له تأثير كبير تقوّيه الأحزاب الشيوعية فى مختلف مناطق العالم، وكان ينفق كثيرًا من الأموال من أجل نشر ثقافته وفنونه ويشارك فى القضايا الإنسانية الجذابة، هذا بالإضافة إلى تقدمه العلمى الكبير. ويرى الكاتب إن المنافس الأقوى حاليا للولايات المتحدة الأمريكية هى أوروبا، حيث تحتل الدول الأوروبية المراكز الخمسة الأولى فى عدد جوائز نوبل فى الأدب، والمراكز العليا فى مبيعات المؤلفات الموسيقية ونشر الكتب، هذا بالإضافة إلى ما تتمتع به من جاذبية عالمية طاغية من خلال الفنون والآداب والأزياء والأطعمة الأوروبية. أما من حيث الإنفاق على المساعدات التنموية الدولية والدبلوماسية العامة، فإن إنفاق جميع الدول الأوروبية يفوق ما تنفقه للولايات المتحدة الأمريكية، بالإضافة إلى

ميل أوروبا للسلم ودفاعها عن قضايا حقوق الإنسان وحفظ البيئة وغير ذلك مما يزيد من جاذبيتها، وكونها ذات خبرة أكبر وأفضل من الولايات المتحدة الأمريكية فى إدارة المؤسسات متعددة الجنسيات. ويستعرض الكتاب بعد ذلك القوة الناعمة الموجودة فى قارة آسيا وخاصة اليابان التى لها قوة ناعمة كبيرة بسبب كونها صاحبة أكثر براءات اختراع فى العالم، ورائدة الصور المتحركة وألعاب الفيديو، واحتلالها المركز الثانى فى بيع الكتب والموسيقى وصادرات التقنية العليا واستضافة المواقع الإلكترونية، كما يشير الكاتب إلى الصين والهند ومستقبلهما المشرق المنتظر. ويختتم الكاتب هذا الفصل بالحديث عن المؤسسات غير الحكومية التى تتمتع بقوة ناعمة كبيرة مثل المنظمات الحقوقية والشركات عابرة القومية، خاصة وأنها المستفيدة من الثورة المعلوماتية والاتصالات.

الفصل الرابع

يعد إتقان استخدام القوة الناعمة هو محور اهتمام وتركيز الفصل الرابع من الكتاب، ويعطى مثالاً لهذا ما فعلته فرنسا حين حرصت على نشر لغتها وآدابها فى الخارج فى القرن التاسع عشر. ثم أعطى الكاتب مثالاً مهماً ومثيراً وهو مكتب الخدمات الإستراتيـــجية فى أمريكا الذى كان يعمل على "نشر بعض المعلومات المضللة، والتدخل فى تشكيل منتجات هوليود لتصبح أدوات دعاية فاعلة، وذلك عن طريق اقتراح إضافة أشياءأوحذف أشياء، وحرمان أفلام أخرى من الرخصة". تناول الكتاب أيضا تراجع الاهتمام الأمريكى باستثمار القوة الناعمة مع مرور السنين إلى أن اصطدمت الولايات المتحدة الأمريكية بأحداث ١١ سبتمبر حيث وجدت نفسها مضطرة إلى مراجعة سياستها واستراتيـــجياتها. ويؤكد الكاتب على ضرورة اهتمام الولايات المتحدة الأمريكية بنشر صورة جيدة ومقبولة عن نفسها فى العالم وعدم الاعتماد على أصدقائها وحلفائها من الحكّام، فغالبية الدول الآن تنتهج الديمقراطية ولديها برلمانات وجماهير تؤثر فى السياسات الدولية.

ويقترح الكاتب استخدام ثلاثة أبعاد للدبلوماسية العامة-على أن تتماشى هذه الأبعاد مع السياسة العامة للبلد لزرع صورة إيجابية- وهى:

١- الاتصالات اليومية؛ أى توضيح السياسات المحلية والخارجية عبر الإعلام.

٢- الاتصال الاستراتيـــجـــى ؛ أى الحملات السياسية الدعائية المركزة .

٣- العلاقات الدائمة مع الشخصيات، وذلك عبر المنح الدراسية والمبادلات الأكاديمية والتدريب والمؤتمرات.

خصص الكاتب جزءًا من هذا الفصل للحديث عن صعوبة استخدام القوة الناعمة فى الشرق الأوسط، نظراً للفوارق الثقافية الكبيرة بين أمريكا والشرق الأوسط ونزعة العداء لأمريكا بالإضافة إلى أسباب أخرى. كما أوضح الكاتب أن هناك جوانب عديدة من الثقافة الأمريكية يحبها الشرق الأوسط والتى تُعدّ أساسًا جيدًا للقوة الناعمة، ولكن الولايات المتحدة الأمريكية واجهت فشلاً كبيراً فى استغلال هذه الفرص. لذلك فقد وضعت لجنة استشارية بعض التوجيهات لزيادة قوة أمريكا الناعمة فى البلاد العربية الإسلامية مثل إنشاء المكتبات وترجمة الكتب الغربية إلى العربية وزيادة المنح الدراسية والزيارات الأكاديمية، ويشدّد الكاتب على ذلك بقوله إن "أهم شىء هو تطوير استراتيـــجية بعيدة الأمد للمبادلات الثقافية والتعليمية التى تنمى مجتمعًا مدنيًا أغنى وأخصب وأكثر انفتاحاً فى بلدان الشرق الأوسط. إن أكثر الناطقين باسم أمريكا فاعلية وتأثيرًا ليسوا هم الأمريكيين، بل وكلاؤهم المحليون من أهل البلاد الأصليين الذين يفهمون فضائل أمريكا وعيوبها خاصة وأن الطلبة الدوليين يعودون لأوطانهم فى العادة بتقدير أكبر للقيم والمؤسسات الأمريكية فهم يشكلون خزاناً رائعاً للنوايا الحسنة تجاه البلد الذى درسوا فيه، وكون الكثير منهم سينتهى به الأمر إلى تولى سلطة القرار فى بلده الأم".

الفصل الخامس

تمثل العلاقة بين السياسة الخارجية الأمريكية والقوة الناعمة موضوع الفصل الخامس والأخير من الكتاب، ويرى الكاتب أن حرب الأسابيع الأربعة –على العراق– قد نجحت فى تقديم عرض واضح للقوة العسكرية التى أزاحت الرئيس العراقى صدام حسين من نظامه القوى إلا أنها كانت باهظة الثمن فيما يتعلق بتكاليف القوة الناعمة أى القدرة على اجتذاب الآخرين. ويشير الكاتب إلى أن بعض الدول الصغيرة أصبحت ذات تأثير كبير ومنها قطر التى تعتبر قناة الجزيرة الإخبارية – تبعا لرأى الكاتب– مصدر قوتها الناعمة، حيث عرضت القناة خلال الحرب الأمريكية ضد العراق صوراً لضحايا مدنيين استفزت مشاعر الناس وأصبح الكثير منهم متعاطفاً مع القاعدة التى ارتفعت شعبيتها فى بعض الدول مثل: إندونيسيا والأردن. هذا وقد أظهر استطلاع للرأى أجراه مركز بيو للبحوث فى أعقاب الحرب هبوطاً مفاجئاً وحاداً فى شعبية الولايات الأمريكية قياساً بمرحلة ما قبل الحرب حتى فى البلدان البعيدة عن الجوار العربى مثل إسبانيا وإيطاليا اللتين قدمتا لهما الولايات المتحدة الأمريكية دعماً للجهد الحربى، كما هبطت مكانة أمريكا هبوطاً عمودياً فى البلدان الإسلامية، وفى ضوء احتياج أمريكا لمساعدة هذه البلدان على المدى الطويل فى أعمال تعقب الإرهابيين وتعطيل تدفقهم وإيقاف الأموال الملوثة والأسلحة الخطرة فإنه يتعين على الولايات المتحدة الأمريكية أن تظهر براعة كبيرة في ممارسة القوة الناعمة كما أظهرت ممارستها للقوة الصلبة لكسب الحرب.

ويشير الكاتب إلى السياسات الأمريكية الداعمة لإسرائيل التي تكلف الولايات المتحدة الأمريكية ثمناً باهظاً فى دول العالم الإسلامى وتعد تلك السياسيات عائقا أساسيا للقوة الناعمة الأمريكية فى البلدان الإسلامية.

وقد بيّن الكاتب فى هذا الفصل كيف أن هذه السياسة "المكروهة" من قبل الإدارة الأمريكية فى ذلك الوقت أدت إلى انحدار القوة الناعمة وتناقص أثر الثقافة الشعبية الأمريكية فى العالم فى مقابل تزايد الإقبال على الثقافات الأخرى والفاعلين الآخرين، مثل تنظيم القاعدة الذى زادت قوته الناعمة إثر معاداة الولايات المتحدة الأمريكية.

ويؤكد الكتاب على أن "صورة الولايات المتحدة وجاذبيتها للآخرين هو مزيج مركب من الأفكار والمواقف المختلفة، وتعتمد في جزء منها على الثقافة وهى غير خاضعة لسيطرة الدولة، وعلى السياسات المحلية والقيم، وجزئيا على التكتيكات، بالاضافة الى جوهر وأسلوب السياسات الخارجية، ويشير الكاتب إلى أن جوهر السياسة وأساليبها على حد سواء أكثر تقلباً وأكثر عرضة لسيطرة الحكومة، والقوة الناعمة ليست ساكنة وتتغير مواردها مع الظروف المتغيرة".

ويحذر الكاتب من تجاهل الإدارة الأمريكية للقوة الناعمة ويستنكر إنفاق الولايات المتحدة الأمريكية على القوة العسكرية حوالى ١٧ ضعفًا أكثر مما ينفق على القوة الناعمة. ويرى الكاتب أن "جميع الدول تسعى لتحقيق مصالحها الوطنية فى مجال السياسة الخارجية، ولكن يوجد العديد من الخيارات والوسائل التى يمكن من خلالها تحقيق تلك المصالح، ومن أجل حشد تعاون الدول الأخرى لتحقيق مصالح الولايات المتحدة الأمريكية استخدمت القوة الناعمة لنيل ذلك فالسياسية الخارجية الأمريكية يجب أن تعتمد فى جزء منها على كيفية صياغة أهدافها لجعلها جاذبة للآخرين".

وقد انتهى الكاتب بالتأكيد على أهمية القوة الناعمة فى السياسة الخارجية للدول وتأثيراتها وحدودها مشيراً لإمكانية التغير فى محتوى القوة فى السياسية الدولية، وموضحاً العوامل التى يمكن أن تكون مصادر ثرية للقوة الناعمة الأمريكية، ومؤكداً أيضاً على أن العديد من الدول تمتعت بقوة ناعمة قادرة على

التأثير، وأن الولايات المتحدة الأمريكية ليست الدولة الوحيدة الرائدة فى كل نوعٍ من مصادر القوة الناعمة.

ويستنكر الكتاب تجاهل الإدارة الأمريكية للقوة الناعمة وإستخداهما مجموعة من السياسات "المكروهة" التى أدت إلى انحدار قوتها الناعمة، مؤكداً على إمتلاك الولايات المتحدة الأمريكية مصادر ثرية للقوة الناعمة الأمريكية. ويرى الكتاب أن إتقان استخدام القوة الناعمة هو أمر ضرورى، ويعطى مثالاً لذلك بصعوبة استخدام القوة الناعمة فى الشرق الأوسط- نظراً للفوارق الثقافية الكبيرة بين أمريكا والشرق الأوسط ونزعة العداء لأمريكا بالإضافة إلى أسباب أخرى- بالرغم من وجود جوانب عديدة من الثقافة الأمريكية يحبها الشرق الأوسط والتى تُعدّ أساسًا جيدًا للقوة الناعمة يعود بالنفع على السياسية الخارجية للإدارة الأمريكية.